

## كتابة المربيات ... «سرديات الإيذاء والأهل»

مائلك الريماوي

الاجتماعي، ودخولهن في تنافس سياسي وطبقي مع قوى أخرى في حقلَي التربية والثقافة، وبذلك يمكن القول إن البحث في سؤال ماذا يحدث عندما تكتب المربية؟ أو ماذا ستكتب؟ هو بحث في شكل انخراطها السياسي الثقافي في المجتمع عند شروعها في الكتابة.

فنحن كبشر نولد في مجتمع لا يتوقف عن «الكلام»، يسرد ويروي ويسن قوانين، كل الوقت يسرد علينا قصصه، ويمارس علينا الإملاء؛ إنه الإملاء الذي يصل حد «الإيذاء»؛ إيذاء مبرمج، ومخطط له، يوظف اللغة والمجاز والاستعارة، يوظف السرد والحكي، يستثمر الصورة وفتنة المرئي، سحر الكلمة وخطرة الكتابة، فكما يرى «لايكوف»<sup>2</sup> فإنهم يفرضون علينا أن نفكر في الفيل «حين يطلبون منا أن لا نفكر فيه».

وبذلك، فإن المربية عندما تكتب تكون قد خرجت من مسار الطاعة والامتثال، وبدأت تفكر فيما تريد أن تفكر فيه، لا فيما يقال لها أن تفكر؛ سواء بصيغة الطلب أو النفي. المربية تكتب يعني تستعيد استقلالية عقلها، وتعيد إلى التعليم عقله الواعي.

### سرديات في الحقل التعليمي

فالتعليم «كفعل ومؤسسة اجتماعية»، مثله مثل غيره من المسائل الاجتماعية، «متورط في الكلام والسرد الاجتماعيين، فالتعليم يتضمن سرديات وخطابات لفظية مبرمجة ومتشكلة كنماذج تحدد الفعل، تحدد المقبول والمطلوب والصحيح، لكن في قلب هذا المطلوب والمقبول يكمن الفيل الذي يمنع التفكير فيه، يكمن «المرفوض والممنوع الذي يُنظر له بوصفه خطراً».

ماذا يمكن لمربية أطفال أن تكتب؟ إنه السؤال الذي نطرحه ليس بهدف الإجابة عنه، بقدر ما يعني البحث فيه، البحث فيما تكتبه المربية فعلاً، البحث في معنى أنها كتبت؛ «في دلالة الكتابة كمنتج» وفي «دلالتها كسيرورة فعل ومسار تكون»، تكون مهني وتكون ذاتي.

إن البحث فيما تكتبه المربيات يعني أن المربيات قد كتبن، وحدوث الكتابة لا يعني انخراطهن في فعل الكتابة فحسب، بل هو انخراط في كل ما يمثله هذا الفعل من منتج ومعنى وسيرورة؛ فطبقاً لنظرية الخطاب وتحليله، ف«الوجود كتابة والمجتمع صراع لغات»، وبالتالي فهو شكل من الانخراط في الوجود وفي المجتمع. انخراط يتسم بالفاعلية السياسية، فالكتابة، هنا، ليس مجرد دخول لعالم اللغة والكتابة، بل هو دخول عبر الكتابة إلى العالم وسياسات تنظيمه التي يتم تقديمها كما لو أنها حكر على فئات معينة، وامتياز خاص يحدد خطوط الفعل والقوة في المجتمع، ما يجعل فعل الكتابة الذي تمارسه المربيات نوعاً من التمرد على الأعراف؛ أعراف الكتابة وأعراف المجتمع، وهو كسر لحالة الصمت التاريخية، واستتطاق لواقع المضطهدين لتحويل الأنين المكتوم إلى حالة من الكلام النشط.

وبما أن الوجود الإنساني، من وجهة النظر السردية الكتابية، «هو صراع سرديات، فالوجود -تاريخياً- وموقعياً- هو «تنافس قصص مع قصص أخرى، قصص هي في مضمونها «تصورات ثقافية»<sup>1</sup>، ومحفزات أخلاقية، ونماذج عقلية، تحدد للناس مسالكهم في العالم، وطرق عيشهم في المجتمع.

فكتابة المربيات هي نوع من انخراطهن في الصراع

إنتاج ذاتها كمرية، تمنع بقوة النظام ومنطقه «منطق الداخل»، منطق النظام وقوة رأي الأهل، ويحول ذلك إلى «دلالات اقتصادية»، إنه القول الفصل لكي تحافظي على راتبك عليك أن تطيعي، أو بصيغة أخرى، «أنك تأخذين راتبك ثمن أنك مطيعة، حافظي على ذلك».

إذن هو الإكراه الذي يصل «حد الإيذاء»، وهنا ينبثق سؤال القراءة كيف يمكن لمعلمة أن تواجه النظام الذي يؤذيها ويؤذي أطفالها، وهو يدعي أنه يوفر لها العمل، ويوفر لهم التعليم.

كيف يمكن لمربية أطفال محددة بشروط الواقع الاجتماعي والاقتصادي، واشتراطات المهنة الإدارية والتربوية المفروضة أيديولوجياً، أن تواجه الشرط الأيديولوجي لوجودها كمرية، وتعمل على تحرير الأطفال المطلوب منها تحديد وجودهم ونموهم في قوالب النظام ونماذج الأيديولوجية، مطلوب أن يتعلموا حروف اللغة التي ستخضعهم، وأرقام الرياضيات التي ستوظف في استغلالهم، دون أن يسمح لهم بالتفكير والتخيل وتعلم الإنتاج والاعتماد على الذات؟

كيف يمكن للمربية المحددة بشروط واقعها، والمكلفة من قبل النظام لتحدد أطفالها بحدود النظام وشروطه الأيديولوجية، أن تجد خطوط هربها لتهرب هي وأطفالها إلى عالم يرسمون فيه خطوطاً جديدة، تمثل مجازات جديدة لصيغ عيش محتملة وممكنة؟

حينما يقوم النظام بإيذاء المربية ومقاومة مشروعها، تلجأ المربية للمقاومة، وتعيد صياغة المعادلة، «سأكمل مشروعني لن أبالي بالنظام»، المديرية تقول «يجب أن تكوني حريصة مع هذه الأعمار وتتعاملي معها بحذر، فهم خطيرون، تعاملي كأنك في ساحة حرب.» «وسأكون حذرة فعلاً فأنا في حالة حرب، حرب ليست مع الأطفال، بل مع النظام الذي يحاصرني، ويعمل على اختصار الأطفال إلى حروف وأرقام، سأكون حذرة في حالة حرب، حالة حرب أحتاج فيها أطفالاً الخطرين، أحتاج الخطير فيهم، أحتاج خيالهم لننجز معاً مشروع تعلمهم، ومشروع تكوني، وننجز معاً خط حريتنا.

ويبقى الصراع، ويأخذ أشكاله المتعددة لكي «تأخذي

«الدراما كسياق للتعليم، التعلم بالمشروع، في نظر النظام الرسمي «تعليم لا يصلح إلا للأجانب»، هذا تعليم لا يناسب طلابنا، هذا تعليم يناسب «بلاد برة»، هذا ما تقوله المديرية، هذا ما يراه النظام، يرى أن التعليم عبر الفعل والانخراط، عبر المشروع تعلم خطر، فالنظام يرى أن التعليم المبني لتحقيق الاعتماد على الذات وبناء المسؤولية، وتحقيق النمو المتشعب، وتطوير القدرات، بتوظيف الفن، والخلقة، والتساؤل، والابتكار يناسب «بلاد أخرى»، نحن نريد تعليم الأطفال الحروف والأرقام والكلمات، والإملاء، وجمال الخط، هذا ما يريده الأهل. هذا ما تنطق به المديرية باسم النظام الذي تعمل وكيلة له وعنه.

تحدد غاية هذه القراءة، في تأمل تلك المواجهة بين سردية مربيات دخلن في صيرورة تعليمية تعتمد على منهجية توظيف الدراما، والمشروع، والفن، كسياق لتعليم مبني على فكرة التكون المهني الذاتي، وسردية نظام متكون تقليدياً ومكرس في بنيته وهيكلته وأعرافه الثقافية ومرجعياته التربوية.

المربية التي تمارس التعليم بصيغة المشروع؛ مشروع يعتمد على «الدراما» يوظف السياق وحاجات الأطفال، يستثمر «التوتر الدرامي»، ولعب الأدوار، يوظف الخيال بشكل منتج، يخلق تعليماً مرثياً، تواجه النظام، «عادت المديرية لتتابع ما أقدمه لأطفالي. كان يزعجها جداً أنها لا تعرف ما أعرفه، فحاولت أن تحبطني بقولها «هذا التعليم يصلح للروضات الأجنبية وليس لنا»<sup>3</sup>. فالمديرية تقول هذا تعليم «لا يناسب أطفالنا» يناسب «بلاد الخارج». المديرية تستخدم كلمة يناسب، «هي وكيلة النظام» الذي يحدد المناسب وتستخدم «بلاد الخارج». إذن، هي تنطق باسم (الداخل)، هي وكيلة الشعب والمجتمع، أما المربية فوكيلة «ما هو خارج، ما هو أجنبي» وغير مناسب، هي «وكيلة الغريب»، وغير المناسب، وغير المقبول.

الأهل يريدون أن يتعلم الأطفال والحروف والأرقام، هذا ما عليك أن تقومي به، كل طفل يترك الروضة يعني نقص «50 شيكلاً»<sup>4</sup> من راتبك، النظام يجد حليفاً له في الثقافة السائدة في «ثقافة الأهل ورؤيتهم التربوية».

المديرية ومعها النظام يواجه «طموح المربية في التغيير»، المربية تمنع من التجريب من ممارسة ما يمكنها من إعادة

إنه صراع حول شرعية وجود المعلمة كمعلمة حقيقية، أو شرعية النظام في تحويلها لمجرد أداة طائفة تعمل على تطويع الأطفال.

المربية تتوسل في الممارسة لإثبات (فعالية المنهج الذي تطبقه) وتبناه، تحقق تعلماً فاعلاً لطلابها، تجعل منه تعلماً مرثياً يكسو أرضية الصف وجدرانه، وينزرع في الأطفال على شكل شغف ونمو وتعلم، وتجعل منه سياقاً تفاعلياً للتواصل مع الأهل.

ولكن هذا الشكل من التعلم تدرك أن تحققه في حقل الممارسة لا يكفي لإثبات وجوده، وتحويله إلى «بديل»، ولذلك تتوسل القصص، والسرد، لتخلق أفقاً لشرعيته؛ شرعيته في مواجهة الشكل التقليدي وتفكيك رسوخه وقداسته، فهي تكتب لتقتلع الشكل التقليدي من «حياتها» أولاً، ومن ثم تفكك شرعية وجوده في الحقلين التربوي والاجتماعي.

راتبك عليك أن تنفذ النظام»، فتقلب المربية المعادلة «لكي تستحقي راتبك يجب أن تكوني معلمة أولاً، أن تكوني معلمة عليك إيذاء النظام، جرحه». نعم، لا بد من جرح النظام لخلق فسحة الميلاد، ميلاد الأمل، وكما أن الإيذاء يتطلب أن تكون هناك مقاومة، فالمقاومة، أيضاً، تتطلب وجود الأمل، فالأمل ضرورة للمقاومة، وللتعليم أيضاً، لأنه مع غياب الأمل لن يكون هناك لا ذكاء ولا إبداع ولا تعلم، إذن لنخلق الأمل.

المربية في صراع؛ صراع حول «ممارستها» وما تحاول أن تقدمه لطلابها: «التعليم عبر المشروع وعبر الدراما»؛ تعلم يوصف بأنه «تعليم خطير»، تعليم غريب «يناسب الأجنبي»، المربية تكافح لأجل تمرير «التعليم الذي تجد فيه ذاتها وتمنح مساحة لأطفالها، مساحة للتعلم والاستكشاف»، ولكن الصراع لا يتوقف حول «هذا الشكل من التعليم وإمكانياته»، بل هو حول شرعية هذا الشكل، أو حول حق المربية أن تخلق ذاتها كمربية، وتجد طريقتها،



جانب من أحد لقاءات مشروع التبادل في روضة عبوين ضمن برنامج التكون المهني لمربيات الطفولة المبكرة - برنامج البحث والتطوير التربوي، آذار 2018.



والذات لا تسترد، فليس هناك ذات ضائعة، وليس هناك ذات حقيقية يتم اكتشافها، بل إن الذات وحقيقتها هي عملية بناء ذاتية اجتماعية، عملية لا ينفصل فيها فعل البناء عن فعل إسقاط صور الذات الزائفة.

### الخروج من لعبة الكبريت

الكتابة هنا ليست ورقة ويداً وقلماً، بل هي تجربة وميلاد وقلق، فاللحظة التي انخرطت فيها المربيات في الكتابة، شكلت لحظة ميلاد، أو إعلاناً عن ميلاد: «كان لي طفولة وقصة»؛ إنه التعبير الأقوى عن متلازمة السرد والكينونة، أو تداخل الذات وقصتها، فالقصة هي شرط بقاء مرحلة ما.

فالسرد هو شرط التلقي، فبقاء الزمن مرهون باختزانه في قصة، وكما يملك السرد القدرة على تخزين الزمن، فإنه يملك القدرة على تحريره، وهذا ما شعرت به المريية وهي تكتب قصة استردادها لطفولتها، فتذكرت قصة لعبة الكبريت، «طلبت منا المعلمة كتابة أحلامنا ووضعها في لعبة الكبريت»<sup>5</sup>. وعندما كانت طفلة، تساءلت كيف تضع أحلامها في لعبة كبريت؟ وكأنها تسأل عن مادة الحلم، أو عن حيز اللعبة، سؤال المنطق المحكوم بحدود الواقع، لكن عندما تكبر تعود إلى اللعبة ولحلمها، وتشعر في تحقيقه وتعود إلى السؤال فتسأل: ما معنى أن تضع أحلامك في لعبة كبريت؟ لم يعد السؤال سؤال المادة والحيز، بل أصبح سؤالاً في الدلالة والمعنى.

في السؤال وتحولاته، تتحول دلالة اللعبة من لعبة كبريت إلى لعبة أحلام؛ لعبة تأخذ من الأحلام كبر حيزها، وأحلام تأخذ من الكبريت قدرته على الاشتعال، فتدخل المعلمة في تجربة مزدوجة: تجربة تحقيق الحلم «كان عليّ أن أجمع المبعثر مني كي أكون، كانت أمييتي أن أصبح معلمة»<sup>6</sup>، وتجربة كتابته، تلك التجربة التي تجتمع فيها دلالتا الحلم والكبريت معاً.

فالمربية التي أوغلت في الحياة بعيداً عن حلمها نتيجة الزواج والإنجاب، أو التي فقدت معنى اسمها وطفولتها في زحمة الحياة، تعود وتفتح لعبة الكبريت، تمارس مهنتها وتسترد حلمها وعريتها ومسرحها، نسرين سجديّة التي كانت في طفولتها تصنع عربة للأطفال من باب خزانة وأربعة عجلات، عربة تؤجرها للأطفال الحي كي تجمع مبلغاً تنتج من خلاله مسرحيات صغيرة تعرضها لأمها وأمها

تكتب لتُعدّ، عبر السرد، المسرح؛ مسرحاً يعرض الشكل الجديد، الأطفال الذين يتعلمون داخل العالم، يتعلمون العالم ويتعلمون دورهم فيه، يتلقون أسئلة العالم ويطرحون عليه أسئلتهم، يعيدون خلقه وهم يتعلمون المسؤولية، مسؤوليتهم اتجاه العالم واتجاه إنسانيتهم، معنى أن يكونوا بشراً في عالم يمثل بيتهم، المعلمة تعلمهم أن لا أحد يمكنه أن يتحكم بإنسانيتكم، ذواتكم، عليكم تعلم خلقها، تطويرها، بنائها، مربية تعلم الأطفال وتعيد خلق ذاتها، معلمة تعلم الأطفال، وتعد مسرح نموهم، ومسرح «استعادة كينونتها» وتكونها كمعلمة.

### الأراضي التي لا يملكها أحد

المربية التي تتحدى تتحدد مسيراتها بثلاثة صراعات مع «ذاتها عبر مواجهة ممارساتها السابقة المتشكلة فيها كتاريخ اجتماعي تربوي على شكل عادات وطبائع مترسخة في خطاطات الفعل»، ومع النظام التربوي والسلطة التقليدية فيه، ومع المجتمع وثقافة السوق والسلعة. فالمربية التي ترغب في أن تعلم بشكل ومنهجية جديدين، هي في علاقة صراع مع النظام والمجتمع وذاتها. لماذا؟ ببساطة، لأنها تقترح ثقافة جديدة؛ «صيغة جديدة للعلاقة بالعالم، صيغة جديدة للعيش، صيغة جديدة للوجود الإنساني»، ولذلك هي «في مواجهة صراعية» مع الصيغة المترسخة في «المجتمع والنظام، وفي ذاتها أيضاً».

لكنها تختار إدارة الصراع في «أرض لا يملكها أحد»، أرض تشبه المناطق الحدودية بين الدول المتصارعة، حيث كل دولة تحرس الجهة الداخلية لحدودها، وبين الحدين المحروسين ثمة أراضٍ لا يملكها أحد، فما هو خارج حدود النظام والمجتمع، هو خيال الأطفال، وإرادة المريية، وشغفها. هنا عملت المربيات، في هذه المساحة رسمن الخطوط الجديدة؛ خطوط مربية تجرب وتكتب، وأطفال يتعلمون ويلعبون؛ يلعبون في أغراض العالم ليعيدوا تشكيله في الأراضي التي اكتشفوها مع معلمتهم؛ أراضٍ لم يملكها أحد من قبل.

في الأراضي التي اخترعتها المريية وأطفالها، وجد الأطفال المساحة لاستكشاف العالم والبدء في رسم أحلامهم، ووجدت المربيات المساحة لاختبار التجربة، واللعب في الزمن العودة للماضي ليس لاستعادة المفقود، بل لرسم أفق مختلف للمستقبل، فالماضي لا يسترد،



أطفال الحي، وتضيفهن من أجرة العربية، نسرين تعيد بناء الروضة كمسرح؛ مسرح للعب والتعلم، مسرح لا يعرض فيه الأطفال مسرحيات للكبّار، بل هو مسرح يلعب في الأطفال دور الكبار، فينتجون عرباتهم وأحلامهم ويكبرون.

## السرد مفاتيح وقاطعات

«في اليوم الأول للدورة، في أحد الأنشطة، طُلب منا أن نتخيل قفلاً ما في حياتنا، قفلاً يقفل فرصة ما، وأن نخترع له مفتاحاً مناسباً»<sup>7</sup>. هكذا بدأ المساق الأول لمريبات الطفولة، بدأ من الفرص المقفلة، ليس منها بالضبط، بل من الخيال الذي يخترع مفاتيح لفتحها، وبالخيال صممت المريبات مفاتيح للأبواب وقاطعات للقيود، تلك المفاتيح التي تقول المربية في وصفها: «بعد لحظات كان على أرضية القاعة عشرات المفاتيح؛ المفاتيح التي حملتها من «القطان» إلى الروضة، فتحت أمامي الكثير»<sup>8</sup>.

تلك المفاتيح التي فتحت الماضي وصناده، وكانت القاطعات التي قطعت خطوط النظام وجدران الصف،

ومكّنت المعلمات من إيجاد طرقهن، فتحت عيونهن على مفاتيح وممكنات جديدة «فقد جعلتني أستبدل لوحة مفاتيح جهاز الحاسوب التي كنت أعتقد أنها الوحيدة التي ستفتح لي عالمي، بمفاتيح أصبحت أدوات لفتح العديد من العوالم؛ عالمي وعالم أطفالي».

فما تحقق مع المريبات هو عودات منتصرة إلى الماضي، «ففي إحدى الزيارات، وبينما كنا نقطع جسر الأردن عائدتين إلى الكويت، يصلنا خبر اجتياحها واستحالة العودة إليها، ما اضطرنا إلى المكوث في الأردن على أمل انتهاء ما سمي بـ «حرب الخليج»<sup>9</sup>. تعود المعلمة إلى الماضي، إلى لحظة كانت لحظة وقوف على الجسر؛ جسر تحول إلى لحظة نفي، نفي جديد «كانت لنا في الأردن حياة جديدة، مختلفة، شعرنا فيها بأننا كنا منبوذين جداً، فكلما رأنا الطالبات قلن «هؤلاء هم الفلسطينيون الذين جاءوا من الكويت للعيش في الأردن»<sup>10</sup>، لكنه النفي الذي يكتب الآن بعد أن تم تجاوزه، وهو نفي مكاني ووجودي، عايشته المربية، ولكنه حضر في السرد على شكل سرد



من أحد لقاءات التبادل في روضة عبيون.



العودة إلى الماضي وقراءته والتحرر منه فقط، هي كل ذلك، ولكنها في الجوهر هي سيرة مربيات؛ سيرة ذاتية لعشرات المربيات، فهذه مقدمة لعشرين قصة لمربيات من برنامج التكون المهني؛ مربيات يكتبن سيرة تجربتهن في إعادة بناء الفعل الصفي، وتوظيف هذا الفعل في إعادة رسم خطوط النظام التربوي برمته، وفي كتابة هذا الفعل؛ كتابته كسيرة شخصية تظهر معنى التحولات المرسومة في أرضية الصف، وفي أفق الخيال معاً.

### برنامج البحث والتطوير التربوي

رمزي لحالة نفي أخرى، فهي المربية التي تخصصت في الأصل مهندسة زراعية، وعادت إلى الوطن فلسطين، ولكنها في أرض الوطن عملت مربية، تلك المهنة التي مثلت منفى عن تخصصها، قالت لي المديرية: مهندسة؟ هل ستفطحين عقول الأطفال، لكن في التجربة تكونت المهندسة كمربية، وفي عملها كمربية استعادت تخصص الهندسة معرفياً، وكتبت ذلك سرداً ومجازاً.

إذن، هي التجربة، ليس تجربة العبور في مسافات وورش، ولا تجربة تعليم الأطفال بأشكال ومنهجيات جديدة، ولا هي امتلاك مفاتيح جديدة في التعليم والحياة، ولا

### الهوامش:

- 1 منى بيكر. الترجمة والصراع، حكاية سردية، ت: طارق النعمان، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2018، ص 21.
- 2 جورج لايكوف. لا تفكر في فيل، حيث يستخدم العبارة كاستعارة لحالة تظهر عند تمرير الأيديولوجيات السياسية وشعاراتها، حيث عندما يطلب من المستمعين عدم التفكير في الفيل، فإن المقصود هو جعلهم يفكرون في الفيل، فصيغة العبارة تحيل على عكس معناها المباشر تماماً. وهكذا تفعل الأيديولوجيا وشعاراتها.
- 3 انظر في هذا العدد: براءة خضر، «وأخيراً... سافرت بالطائرة!».
- 4 انظر في هذا العدد: ريمان شوامرة، «في مساحة الممكن.. وجدت نفسي».
- 5 انظر في هذا العدد: شيرين حمد، «أمنية في علبه كبريت».
- 6 المصدر السابق.
- 7 إسراء عزام، مصدر سبق ذكره.
- 8 المصدر السابق.
- 9 انظر في هذا العدد: ديما الصايغ، «حينما كنا على الجسر».
- 10 المصدر السابق.



مجموعة من مربيات الطفولة المبكرة خلال مشاركتهن في أحد اللقاءات، مؤسسة عبد المحسن القطان 2018.

